الأسلوبية

مفهوم الأسلوب :

الاسلوب لغة : لـ (سَلَبَ) في المعجم معانٍ شتى تلتقي في أصل واحد هو : أخذ الشيءمن شيء... ومن المجاز قولهم : أنف فلان في أسلوب ، كناية عن التكبرفهو لايلتفت يمنةً ولايسرةً. (اساس البلاغة : سلب)

ولعل أقرب المعاني اللغوية للمعنى الاصطلاحي قولهم : الأسلوب: الطريق والجمع اساليب وقولهم أخذ فلان في أساليب القول ، أي : في فنونٍ منه (جمهرة اللغة :1/ 289) فالمراد به أن فلانًا أخذ في التفنن والتشعب وترك الطريق المعتاد ، فهو متميز بقوله ؛ لانه لم يسلك به مسلكا واحدًا مثل ماسلكوا..

وعند الغربيين فإن الأصل اللغوي لكلمة عصا مدببة Style ويعود الى اللغة اللاتينية فقد كان يعني تستعمل في الكتابة على الشمع ويراد بها أداة الكتابة كالريش أو القلم ، ثم انتقل الاصل بطريق المجاز الى مفهومات تتعلق كلها بطريقة الكتابة .فارتبطت أولا بطريقة الكتابة اليدوية ثم أطلق على التعبير الادبي فقد استخدم في العصر الروماني استعارة تشير الى طرائق تعبير الخطباء لا الشعراء .. وقد ظلت هذه الدلالة في اللغات الادبية المعروفة ،إذ تنصرف أولا الى الخواص البلاغية المتعلقة بالكلام المنطوق (علم الاسلوب :د. صلاح فضل:71)

وجاء هذا المعنى من تعلق الاسلوب بالخطابة ، إذ استخدم المصطلح في كتب البلاغة اليونانية بمعنى احدى الوسائل المتبعة لاقناع الناس ، وهذا لايكون إلا بمطابقة الكلام لمقتضى الحال لتحقيق اكبر قدر من التأثير في السامعين ، ولذلك قال أرسطو : " لايكفي أن يعرف المرء يجب عليه أن يقوله ، بل عليه ايضا أن يعرف كيف يقوله" وقد أفرد أرسطو القسم الثالث من كتابه الخطابة لدراسة الاسلوب .

ونشأ من التفرقة بين مضمون الكلام وطريقة التعبير عنه مفهومٌ للاسلوب توارثه الأدباء الاوربيون فكان التعبير_ عندهم _ ثوبًا للمعنى و الأسلوب طرازًا لهذا الثوب (معجم المصطلحات الادبية : 22) (الأسلوب والاسلوبية: 25).

إن محاولة إيجاد معنى إصطلاحي محدد لكلمة الأسلوب تبدو شاقة ذلك أن كلمة (الأسلوب) مطاطة تستخدم باستخدامات مختلفة ، إذ يمكن أن تشير الى الالفاظ وطريقة ترتيبها أو المعاني وطريقة سردها ، كما

أنها تحمل دلالة على القيمة الفنية وتدل على التميز فيصبح الأسلوب: هو روح الكاتب أو شخصيته... ويمكن القول :

الأسلوب: " طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه في الإبانة عن شخصيتهِ الأدبية المميزة عن سواها ، ولاسيما في اختيار المفردات وصياغة العبارات والتشبيه والايقاع "

نشأة علم الأسلوب :

إن الأسلوب عند القدماء جزء من صنعة الاقناع وبذلك فإنه قديم قدم البلاغة بعد ارتباطهِ بالخطابة ، فقد كانت الخطابة تبحث عن الوسائل التي من شأنها إحداث أكبر الأثر في نفوس السامعين سواء باللفظة المناسبة أو صياغة الجملة أو الصور البلاغية .

إلا أن نشأة علم الأسلوب أو الدراسة الاسلوبية واكبت تجديد دراسة اللغة وظهور علم اللغة الحديث على يد(دي سوسير) ... فقد كان الأوربيون منذ عصر النهضة حتى أوائل القرن التاسع عشر سائرين على نهج في دراساتهم لاتختلف مبادئهِ عن نهج لغويينا القدماء وإن اختلفت المشكلات ، ولكن التغيير المهم في علم اللغة عندهم حدث عندما اخذوا بالنظرة التاريخية المقارنة وراحوا يحاولون اكتشاف خطوات التطور في اللغة .

وبفضل علم الاجتماع ومادخله من تطور حدث انقلاب في علم اللغة ، فقد حدد (دوركهايم) الوقائع الاجتماعية بأنها أشياء تشبه الأشياء التي تدرس في العلوم الطبيعية ، وأن هذه الوقائع ذات طبيعة عامة وليست فردية. كما أشار (دوركهايم) نفسه الى أن اللغة يمكن جعلها شيئًا ، وهي ليست فردية بل ظاهرة عامة. فتابع (دي سوسير) منهجه في دراسة اللغة على أنها شيء عام مثل الوقائع الاجتماعية ، وربما الى دراسة اللغة لبناء متكامل في مدة زمنية محددة قبل دراسة التطورات الجزئية التي تطرأ على نطق حرف من الحروف مثلا فتؤدي الى التغيير في بعض القواعد او بعض المفردات ، وبذلك توضح الفرق بين علم اللغة القديم وعلم اللغة المعاصر. علم اللغة القديمة يؤمن بثبات اللغة على أنها حقيقة ، فإن علم اللغة المعاصر يعامل اللغة على أنها نظام اجتماعي حسي متكامل يستحسن من أفواه الناس لامن الكتب فحسب ، وبما أن البحث في هذه التغيرات لايدخل في دائرة علم النحو الذي يقتضي بحثه على اللغة بوصفها نظامًا اجتماعيًا شاملًاخارجًا من خصوصيات الفرد والموقف، فقد قامت الحاجة الى علم جديد يشغل هذا الفراغ ، وهكذا نشأ علم الأسلوب.

إن علم اللغة الحديث حين أقر مبدأ اجتماعية اللغة وراح يسجل الاستعمالات الجارية وجد نفسه مواجهًا بظاهرة الاختلاف الفردية في استعمال اللغة فنشأت فكرتان مهمتان في علم الأسلوب:

1_ التمييز بين اللغة والكلام ، وكان دي سوسير أول من ميز بينهما تمييزًا علميًا دقيقًا ، فاللغة عنده نظام متعارف عليه من الرموز التي يتفاهم بها الناس ، والكلام صورة اللغة المتحققة في الواقع باستعمال فرد لها في حالة معينة . فاللغة دستور والكلام طريقة استعمال هذا الدستور .

ولاشك في أن استعمال الفرد يطابق اللغة ، ولكنه يختلف عنها في تفصيلاتهِ من فرد الى اخر ، ومن حالة الى اخرى ، فلكل فرد من المتكلمين طريقة في نطق الحروف ، وله معجم لغوي متميز ، وله طريقة خاصة في ترتيب الجمل وربطها ، ومن هنا انطلق علم الأسلوب الذي يعنى بالسمات المميزة التي تتخذها اللغة في الاستعمال وهذه السمات هي التي تكون الأسلوب، وهي ترجح الى استعمال الافراد للغة .

2_ إن الاختلافات اللغوية ترجع غالبًا الى اختلاف المواقف ، وذلك يتضح في أن لكل فئة من الناس طريقة خاصة في استعمال اللغة ، فهناك كلمات تشيع بين النساء ولاتشيع بين الرجال ، وهناك طريقة استعمال الشباب للغة التي تختلف عن طريقة الشيوخ والاطفال ، ثم هناك استعمالات ترتبط بالمهن ، فلغة الأطباء تختلف عن لغة القضاة ، ولغة التقارير تختلف عن لغة الشعر ، وهناك اختلافات تتبع البيئة الاجتماعية للمتكلمين ، فلغة البادية تختلف عن لغة الحضر ، ثم هناك الاختلافات بحسب المناسبة الاجتماعية ، فالحديث بين صديقين يجري بلغة تختلف عن الحديث بين رئيس ومرؤوس .

إن هذه الاختلافات تشترك في تكوين الموقف الذي يحاول القائل أن يراعيه فيما يختار من طرق التعبير فهو يحاول أن يضع مع الدلالة المباشرة أو الاصيلة للعبارة دلالة اخرى تتمثل في طريقة النطق واختيار الكلمات والتراكيب وغيرها من الدلالات مماله تأثير في نفوس سامعية ، وهو في هذا يستخدم فطنته وسليقته اللغوية وخبرته الاجتماعية بما يجب أن يقال ، ومالايجب في المواقف المختلفة (مدخل الى علم الاسلوب : 28_30)

ومن هنا افاد (شارلس بالي) مؤسس علم الاسلوب الفرنسي ، فذهب الى أن اللغة مجموعة من وسائل التعبير التي تتناوب مع الفكرة ، وان علم الاسلوب يعني بدراسة الوسائل التي تستخدمها اللغة للتعبير عن افكار معينة . وهذا الفرق بين(دي سوسير وشارلس بالي) ، إذ لم يهتم سوسير بعلم لغة الكلام كثيرًا ، فقد صبّ اهتمامه في النظام الاجتماعي في علم اللغة ، أما بالي فقد درس جميع الطرق التي يتحول بها النظام

الاجتماعي في اللغة الى مادة من النطق البشري الحي ...فابدع مصطلح الاسلوب . وتتجلى طريقته في الاهتمام بدراسة المؤثرات والتقنيات المعبرة في اللغة اعتمادًا على التمييز بين الخصائص اللغوية المنطقية والعاطفية .

والاسلوب عند (بالي) يتمثل في مجموعة من عناصر اللغة مؤثرة عاطفيًا في المستمع أو القارئ وأن مهمة علم الاسلوب هي البحث عن القيمة التأثيرية لتلك العناصر المنظمة . ولكنه لم يدخل الادب في دراسته ورفض ذلك معللا بأن هناك فجوة واسعة لايمكن عبورها بين استعمال اللغة عند الفرد في ظروف عامة مشتركة مفروضة على جماعة لغوية كاملة ، واستعمالها عند شاعر أو روائي أو خطيب ، وذلك لأن كلام المتكلم العادي يمكن أن يخضع لقاعدة تقيس عدولاته بحسب التعبير الفردي لسائر المتكلمين الاخرين .

أما الادب فانه يقوم باستعمال طوعي وواعٍ للغة أولا، وهو يستعمل اللغة بقصد جمالي من اجل أبداع الجمال بالكلمات كما يفعل الرسام بالالوان والموسيقى ثانيا(الأسلوب والاسلوبية: 29).

لكن (كرسّو) أحد تلاميذة (بالي) لم يقبل هذه التفرقة الحاسمة بين التعبيرية والتلقائية من ناحية والجمالية والقصدية من ناحية اخرى . لقد رأى (كرسّو) اللغة نشاطًا خلاقًا يمارسه الشخص اكثر مما هي نظام إشارات أو رموز مشتركة في مجتمع معين ، وأن العمل الادبي هو وسيلة اتصال بكل سهولة. وإن كل الجماليات التي يضيفها الكاتب على العمل الادبي لاتعدو أن تكون له لضمان اهتمام القارئ بصورة عامة ، و إن العمل الادبي هو ميدان علم الأسلوب بلامنازع ؛لان الاختيار فيه اكثر طواعية واكثر وعيًا

لقد ذهب (كرسّو) الى أن الأسلوب ليس المفردات والصور والمادة النحوية وترتيب الكلمات والعبارات فحسب ، بل هو اكثر من ذلك فهو يشمل الحياة الباطنية للعمل منذ ولادته رؤيا غامضة ولكنها مميزة من كل ماعداها لاتزال تتشكل شيئًا فشيئًا مكتسبة الوضوح والقالب لتصبح الشيءالذي هو موضوع الكتابة ولكن النقاد الأسلوبيين لهم وجهة نظر اخرى ، فهم يرون أن كل هذا الذي ذكره (كرسّو) عن الرؤيا أو اكثر منه ، لاسبيل لنا الى معرفته إلا من خلال النص المكتوب ، وكل معلومة يأتي بها الناقد من خارج هذا النص لتوضيحه_ سواء كانت مستمدة من وقائع عامة معاصرة أم من احداث خاصة ألمت بالكاتب _ لاتؤدي الى اكتشاف الرؤيا اذا لم تكن هذه الرؤيا في النص نفسه ، وهكذا اقتحم مجال علم الاسلوب فريق من نقاد الادب، وبذلك يمكن القول أن أغلب المدارس الحديثة في علم الأسلوب متأثرة بمذهب (ليوسبتزر) الذي يقرر

أن هناك علاقة متبادلة بين الخواص الأسلوبية لنص ما والجو النفسي لمؤلفهِ وهو تطوير لمقولة العالم الفرنسي (بوفون) التي تشير الى أن الأسلوب هو الانسان او الرجل .

الأسلوبية والأسلوب :

لقد تعددت مذاهب العلماء في علم الاسلوب ، ونشأت اتجاهات مختلفة فيه ، إلا أننا نستطيع أن نصل الى الخلاصة مفادها : إن علم الأسلوب الذي تولى البحث في كل مايتعلق بالاسلوب ، الاسلوب الادبي شاع منذ سنة 1882 واخذ يعنى بدراسة الخصائص الاسلوبية ، فالاسلوبية تقابل علم الاسلوب . وعرفت مبدئيًا بأنها علم لساني يعنى بالبحث عن الاسس الموضوعية لارساء قواعد دراسة الاسلوب ، وعرفت عمليًا بأنها علم يعنى بدراسة الخصائص اللغوية التي تنتقل بالكلام من مجرد وسيلة ابلاغ عادي إلى اداة تأثير فني. ثم عرفت منهجيًا بأنها بحث يمكّنُ القارئ من آدراك آنتظام خصائص الاسلوب الفني إدراكًا نقديًا مع الوعي بما تحققه تلك الخصائص من غايات وظيفية (قراءات مع الشابي / د. عبد السلام المسدي : 13)

أما الأسلوب فكما أشرنا مما لايمكن تحديده بتعريف جامع مانع ، وهو ماأشار إليه جميع الباحثين في الأسلوب حتى تطرف البعض فزعم أنه يمكن من استعراض مشكلات تعريف الأسلوب والاعتراضات الموجهة الى كل منها ، استخلاص نتيجة مريحة تحل الإشكال ، وهي أنه لاوجود للأسلوب (علم الاسلوب : 73)

وما هذا الاختلاف حول الأسلوب الا لاختلاف المناهج في بحث الأسلوب، ويمكن أن نستعرض ابرز تعريفات الأسلوب بما يأتي :

1_ الأسلوب اختيار يقوم به المنشيء لسمات لغوية خاصة لكي يعبر بها عما يريد ، فاللغة _ أية لغة_مؤلفة من قائمة هائلة من الامكانات المتاحة للتعبير بها عن المعنى ، ومن مجموعة الاختيارات التي يقوم بها المنشيء يتشكل اسلوبه فيتميز به من غيره .

على أنه يجب التنبه الى أن ليس كل اختيار يقوم به المنشيء ينبغي أن يكون أسلوبيًا بالضرورة وإنما الاختيار الذي تتحكم فيه مقتضيات التعبير الخالصة كالتقديم والتأخير أو العدول من ضمير الى آخر ....الخ .

2_ ذهب فريق من رواد الاسلوبية الى الاهتمام بما يتولد عن النص من أثر في متلقيه ، قام تعريفه للاسلوب على تجلية هذه الخاصية فيه ، وعندهم أن الكلام يعبر والأسلوب يبرز .

إنهم يعرفون الأسلوب بأنه " قوة ضاغطة على حساسية القارئ بواسطة ابراز بعض عناصر سلسلة الكلام ، وحمل القارئ على الانتباه إليها بحيث إن غفل عنها تشوّه النص "

3_ إن الأسلوب مفارقة او انحراف عن نموذج آخر من القول ، اي: إن الاسلوب من العدول من نمط معياري في القول الى نمط آخر مع تماثل السياق في كل منهما ، فلدراسة اسلوب زهير بن ابي سلمى أو اسلوب المتنبي مثلا علينا أولا أن ندرس اللغة القياسية (المعيارية) المستعملة في عصر كل منهما ، ثم نقارن بها اسلوب زهير بن ابي سلمى أو اسلوب المتنبي ، وهي مهمة صعبة ، بل تكاد تكون مستحيلة لبعد العهد بيننا وبين هذين الشاعرين ، وأن المهمة تختلف عن دراسة شعر زهير أو غيره دراسة لغوية نحسب ، لذا لايقوم بالدراسة الاسلوبية إلا ناقد اسلوبي يركز همه في تمييز النص الأدبي من أي نص لغوي آخر ، ومن أي نص أدبي آخر .

ومن الناحية العلمية يرى الاسلوبيون انه كلما تصرف مستعمل اللغة في دلالة الالفاظ أو أشكال التركيب بما يخرج عن المألوف في ذلك انتقل كلامه من السمة الاخبارية الى السمة الانشائية كقول الشاعر : والعينُ تختلسُ السماعَ.

فالمألوف أن تسترق العين النظر ، وفي العدول عنه الى السماع سمة اسلوبية فضلا عن السمة المتأتية من إسناد فعل الاختلاس الى جارحة العين وهو المجاز .

4_ الأسلوب اضافة ، وذلك لوجود تعبير محايد لايتسم بأنه سمه اسلوبية فيكون الاسلوب إضافة الى ذلك التعبير تنحو به منحى موافقًا للسياق ثم يقوم البحث الأسلوبي على تجريد العبارة من سماتها الأسلوبية للوصول الى الجوهر المحايد ، فالبحث يسير في اتجاه معاكس لاتجاه منشيء النص .

وقد عدت ألوان المجاز والصور البلاغية من قبيل المحسنات التي لاتضاف الا للنصوص الفنية ، ولذلك ظل هذا المفهوم للاسلوب سائدًا خلال العصور التي ازدهرت فيها البلاغة التقليدية في اوربا .

5_ الأسلوب تضمّن : أي إن كل سمه لغوية تتضمن قيمة اسلوبية معينة ، وإن السمة اللغوية تستمد قيمتها الأسلوبية من بيئة النص أو الموقف الذي قيل الأسلوب فيه . فالاسلوب هو أن يتضمن التعبير قيمة قابلة

للتغيير بتغيير البيئة والموقف ، ويتخذ التحليل الأسلوبي عند أصحاب هذه النظرة شكل دراسة العلاقات بين الوحدات اللغوية وبيئتها وسياقها .

إن التعريفات السالفة للاسلوب وغيرها تقوم على قاسم مشترك بينها ، وهو أن الأسلوب استعمال خاص للغة يعتمد على استخدام عدد من الامكانات والاحتمالات المتاحة وتأكيدها في مقابل امكانات واحتمالات اخرى . وإن الوسيلة الاساسية لتمييز الأسلوب في ذلك هي المقارنة سواء أكانت صريحة أم ضمنية .

إن اهتمام الدارسين للاسلوب قد اختلف بين الباحثين فإن فريقًا منهم اهتموا بدراسة العلاقة بين النص ومؤلفهِ فراحوا يلتمسون مفاتيح الاسلوب في شخصية المؤلف ، وانعكاسها في اختياراته ، ومن ثم رأوا إن الأسلوب اختيار ، ومنهم من عني بدراسة العلاقة بين النص واثره في التلقي فكان الأسلوب عندهم في مردود الافعال والاستجابات التي يدرسها القارئ أو السامع أمام المنبهات الأسلوبية الكامنة في النص ومن هنا رأوا أن الأسلوب قوة ضاغطة على حساسية المتلقي .

ومنهم من عزل المؤلف والمتلقي عن دراسته ، وركز اهتمامه في النص فوصفه وصفًا لغويًا فذهب الى أن الأسلوب عدول عن نمط معياري أو إضافة الى تعبير محايد أو خواص مضمنة في السمات اللغوية .